طارق علي

يعمل السيد طارق علي محرراً في مجلة نيو لفت ريفيو (اليسار الجديد)، وله أكثر من اثني عشر كتاباً في موضوعات التاريخ والسياسة. وآخر كتاب له هو صراع الأصولية: الحروب الصليبية، الجهاد، والحداثة (مطبوعات فيرسو، 2002) وكتاب بوش في بابل: إعادة استعمار العراق (مطبوعات فيرسو، 2003).

ست جالي: هل يختلف اجتياح واحتلال العراق من حيث النوعية فيما يخص الإمبراطورية، أم أن الموضوع هو"عمل كالمعتاد"؟

يصعب على المرء أن يحدد ما هو "العمل المعتاد" فيما يخص الإمبراطورية الأمريكية، وذلك لأننا نتحدث عن إمبراطورية لها تاريخها المتنوع. فهي إمبراطورية بدأت في أمريكا الشمالية. ولقد جاء التوسع الداخلي للولايات المتحدة نتيجة للعنف: عنف ضد السكان الأصليين (الهنود الحمر)، وعنف في بعض المراحل الحرجة ضد فئات من السكان المهاجرين الذين قدموا إلى العالم الجديد. وهناك شيء يجهله كثير من الناس وهو أن أعداد المهاجرين الطليان الذين قتلوا في ولاية لويزيانا تفوق أعداد الذين قتلوا من السود في بعض مراحل التاريخ الأمريكي. واستُخدم هذا العنف من أجل توحيد البلاد. ولم تكن الحرب الأهلية الأمريكية، والتي يشاع عنها أنها كانت بهدف تحرير الرقيق، إلا لهدف أساسي هو توحيد البلاد بالقوة. هذا هو السجل التاريخي الداخلي لتكوين هذا البلد وتشكيل ثقافته.

obeikandi.com

ثم توسعت الولايات المتحدة خارجياً بفعل "مذهب مونرو"(*) إلى أمريكا اللاتينية. وهناك كتاب جيد من تأليف الجنرال سميدلي بتلر، وضعه بعد أن تقاعد من الخدمة العسكرية في قوات المشاة البحرية. وهو كتاب أنصح دائماً بقراءته، وكثيراً ما أشير إليه في كتاباتي. كان سميدلي بتلر من أبرز الجنرالات في تاريخ البحرية الأمريكية، وكان الجنرال دوغلاس ماكارثر يجله كثيراً، وهناك منشأة عسكرية في جزيرة أوكيناوا في اليابان تحمل اسمه. وعنوان الكتاب هو "الحرب كجريمة منظمة[1]" وكتب فيه يقول، لقد عملت طوال عمري في البحرية الأمريكية، والآن وبما أنني تقاعدت من الخدمة العسكرية، فقد أتيح لي وقت كاف للتفكير فيما كنت أقوم وأكلف بفعله. وذكر أن قوات مشاة البحرية والجيش الأمريكي كانت تستخدم بشكل أساسي أداة في يد الشركات الأمريكية لاحتلال مناطق شاسعة في أمريكا اللاتينية من أجل جعل تلك البلاد أماكن آمنة للشركات الأمريكية كي تتمكن من ممارسة نشاطاتها بحرية. ثم قام بتلر بسرد قائمة لكبريات الشركات في السنوات الأخيرة من القرن التاسعة عشر وبدايات القرن العشرين، والتي اجتاحت أمريكا اللاتينية وأمريكا الوسطى عشرات المرات. وهو كتاب مثير حقاً وبخاصة أن مؤلفه جنرال مهيب استيقظ ضميره فجأة ليدرك ما كان يفعله. وقارن بتلر نفسه ومشاة البحرية بـ آل كابون(*). وذكر

(*) مذهب مونرو: نسبة إلى الرئيس الأمريكي جيمس مونرو. ويتجسد هذا المذهب في الإعلان الذي وجهه الرئيس مونرو إلى الكونغرس في الثاني من ديسمبر عام 1823 مقرراً أن نصف الكرة الغربي الذي تقع فيه الأمريكيتان هو منطقة محرمة أمام الاستعمار الأوروبي وأن أي محاولة من الدول الاستعمارية الأوروبية للتدخل في تلك المنطقة تعد عملاً عدوانياً ضد الولايات المتحدة، وذلك خشية أن تحاول الدول الاستعمارية وبخاصة إسبانيا استعادة مستعمراتها على الأراضي الأمريكية. ويعد هذا الإعلان حجر الزاوية للسياسة الخارجية الأمريكية في أمريكا اللاتينية، وجرى تأكيده وتوسيعه على يد الرؤساء التالين لمنرو.(الموسوعة البريطانية بتصرف).

(1) War as a Racket

(*) ألفونسو (واختصاراً آل) كابون: (1899-1947) زعيم عصابة أمريكي مشهور، كان له سطوة كبيرة على مدينة شيكاغو حيث كان يتربع على شبكة واسعة لأعمال القمار والدعارة وتجارة المخدرات.

أن آل كابون كان يمارس نشاطه في بعض مقاطعات شيكاغو، إلا أننا كنا نمارس نشاطنا في قارة كاملة وحول العالم.

لقد ذكرت هذه القصة من أجل التأكيد على أن هناك استمراراً وتواصلاً في السياسات الأمريكية على مدى القرنين الماضيين. إن النقطة التي تحولت فيها الولايات المتحدة إلى إمبراطورية تحددت بأحداث وقعت في أوروبا وتحديداً الحرب العالمية الأولى. وقد قررت الولايات المتحدة الدخول في تلك الحرب بعد فبراير من عام 1917 عقب قيام أول ثورة في روسيا. وكانت هناك مخاوف من انتشار الثورات في كل مكان، وهو ما سيشكل تحدياً للرأسمالية وحكم رأس المال. وكان ذلك أول تدخل للولايات المتحدة على المسرح الدولي، وأصبحت على إثرها قوة عالمية. ومنذ ذلك الوقت، تحركت الولايات المتحدة بخطى ثابتة لتتبوأ مكانها كلاعب رئيسي عالمي بفضل قوتها الاقتصادية. وبعد الحرب العالمية الثانية، تم قبول الولايات المتحدة كقائد للعالم الرأسمالي، ولم ينازعها أحد على هذه القيادة خلال الحرب الباردة.

إلا أن الولايات المتحدة كان لها نصيبها من التفوق والإخفاق؛ فقد تعاقب عليها رؤساء إصلاحيون، ورؤساء عدوانيون، ورؤساء يرفعون شعار "الآن هو الوقت المناسب لتعزيز انتصاراتنا وينبغي أن لا نفعل شيئاً مفتعلاً ومفاجئاً". ثم هناك آخرون شعروا أن الوقت قد حان للتقدم إلى الأمام مرة أخرى. وقررت إدارة بوش أن الوقت قد حان للتقدم إلى الأمام ثانية الآن. وهذه أطروحة تطورت في عهد حكم بوش الأول على يد مفكر أمريكي من أصل أفغاني هو زالماي

أحكم سيطرته على عصابات المدينة عن طريق قتل منافسيه، وكان في خده الأيسر علامة جرح بالسكين لازمته منذ صغره إثر شجار وقع في إحدى بيوت الدعارة، ولذلك كان يلقب بذي الوجه الأندب. أشهر جرائمه المذبحة التي تسمى "مذبحة يوم عيد الحب" عام 1929 حيث قام رجاله بإطلاق النار على مجموعة من أفراد عصابة منافسه وقتل عدد كبير منهم. (عن الموسوعة البريطانية بتصرف).

خليلزاد والذي كان يعمل في الحكومة الأمريكية آنذاك. وتتلخص هذه الأطروحة بما يلي: كيف نحافظ على الهيمنة الأمريكية في ظل اختفاء أعداء الحرب الباردة؟ كان الجميع يقف وراءنا عندما كنا نحارب الشيوعية، والآن ليس لدينا أحد نحاربه، فكيف نحافظ على الهيمنة الأمريكية؟ ويتلخص جوابه بوجوب استخدام القوة للمحافظة على الهيمنة الأمريكية.

وقد فعلت الولايات المتحدة ذلك من قبل، إلا أن الأيدلوجية خلال الحرب الباردة كانت مختلفة: إذ لم تكن الولايات المتحدة هي الطرف الذي يستخدم القوة. وكان الاعتقاد السائد هو أن القوة تستخدم ضد الولايات المتحدة وأنها أي الولايات المتحدة تدافع عن نفسها. وهذا لم يكن صحيحاً. إلا أن تلك كانت هي الحجة المطروحة. أما اليوم، وفي العالم الجديد الذي أصبحت فيه روسيا رأسمالية والصين رأسمالية، وحيث تنظر أمامك فلا ترى إلا الرأسمالية، فإن الخطر هو خطر اقتصادي؛ فالتهديد ينال مركز الولايات المتحدة كقوة مهيمنة في العالم. وهذا الموقع يعتمد بشكل كبير على السيطرة الاقتصادية. لذلك فإن علينا استخدام القوة للمحافظة على هذا المركز. وكانت هذه الأطروحة تستجمع قواها منذ ذلك الحين.

وأنا شخصياً أرى أن التدخل الذي قاده كلينتون وألبرايت في البلقان لم يكن له سوى ارتباط ضئيل بالتدخل الإنساني، وأن ارتباطه الأوثق كان بهدف فرض هيمنة الولايات المتحدة على المنطقة وعدم السماح لأوروبا بمعالجة الموقف. وعندما حدث ذلك، لم يتنبه لهذه النقطة سوى عدد قليل من الناس. وبعد أن تأكد العجز الأوروبي، كان كلينتون وألبرايت يتشوقان إلى تلك الحرب. وعلى الرغم من أن ميلوسوفيتش كان مستعداً للتنازل عن كل شيء من الناحية الفعلية قبل تلك الحرب، إلا أن الولايات المتحدة تدخلت لترفع من قيمة الرهان، قائلة:"حسناً، نريد أن يكون لنا حق دخول بلادكم وفعل كل ما يروق لنا في تلك

الدولة، ليس فقط كوسوفو، بل في صربيا كذلك." وطبعاً لم يقبل ميلوسوفيتش بذلك. وأتذكر المسوغات التي ساقها كلينتون للشعب الأمريكي لإقناع الرأي العام بتلك الحرب قائلاً بأننا ذاهبون إلى شبه جزيرة البلقان لحماية مصالحنا الاقتصادية. وتساءل الناس مستغربين "حماية مصالحنا الاقتصادية؟!" إلا أن كلينتون كان يفكر من منطلق استراتيجي: يتحتم علينا الذهاب إلى البلقان وبناء القواعد العسكرية. وفعلاً تم بناء أكبر قاعدة جوية للطائرات الطوافة في أوروبا، وهذه القاعدة موجودة في كوسوفو، وقاعدة أخرى هي من أكبر القواعد العسكرية الأمريكية وتوجد في توزلا في البوسنة.

إذن، فهذه عملية مستمرة، وإذا قرأت بعض الكتب التي ألفها مؤرخو العصر الحديث، فستجدهم يشيرون وبكل وضوح إلى أن حكومة كلينتون هي التي بدأت عملية التدخلات الحديثة. إلا أن حكومة بوش انتقلت بتلك العملية إلى مستويات أعلى. فذهبوا إلى ما هو أبعد من ذلك بكثير لأن الحظ كان في صالحهم. وحظهم هو أن هجمات 11 سبتمبر حدثت في عهدهم، ويمكننا أن نتناقش إلى ما لا نهاية حول ما كان سيفعله الديمقراطيون لو كانت السلطة بيدهم. هل كانوا سيحتلون أفغانستان؟ وباعتقادي أن الجواب بالإيجاب. إذ لم تكن هناك أية معارضة من جانبهم في الكونغرس ضد العمليات العسكرية في أفغانستان التي أيدها الجميع. وعليه، لم تكن تلك الحرب عملاً انفرادياً، لأن مجلس الأمن برمته أيدها، وشارك فيها جنود ألمان، وكان كثير من الأوروبيين على وفاق في ذلك الشأن. ولم يظهر الخلاف بين الأوروبيين والأمريكان إلا حين تعلق الأمر بالعراق. إذن، حتى تلك اللحظة لم يختلف بوش عن أي رئيس آخر.

إلا أن الشيء المثير حقاً هو أن الشخصيات التي تحيط بالرئيس بوش وصانعي السياسية خلف الكواليس- هذه المجموعة المتشددة في اليمين الأمريكي المحافظ ممثلة بدك تشيني، ودونالد رمسفيلد، وبول ولفوويتس، وريتشارد بيرل،

obeikandi.com

وكونداليزا رايس- قد ناقشوا فعلاً في جلسات اجتماعات مجلس الأمن القومي الأمريكي والاجتماعات الأخرى ذات العلاقة، مسألة:"كيف يمكننا استخدام أحداث 11 سبتمبر في إعادة تشكيل خارطة العالم وفرض طريقتنا حيثما شئنا؟" وهذه الواقعة موثقة رسمياً، إضافة إلى حقيقية أن نقاشاً واسعاً جرى في مجلس الأمن القومي الأمريكي بعد 11 سبتمبر حول الوجهة التي ينبغي التوجه إليها أولاً: أفغانستان أم إلى العراق؟ وهذا أمر مذهل، لأنه وعلى العكس من الأكاذيب التي رددتها الحكومة والإعلام على الشعب الأمريكي، لم يكن للعراق أي ارتباط بما حدث في 11 سبتمبر على الإطلاق. كما أن نظام الحكم في العراق هو على النقيض من القاعدة بحكم كونه نظاماً غير ديني ولا يولي اهتماماً للقضايا الدينية. فقامت الحكومة بتأخير احتلال العراق، وتوجهت إلى أفغانستان أولاً، ثم قرروا التوجه إلى العراق. والسؤال هو لماذا قرروا احتلال العراق؟ وهو سؤال مثير حقاً.

أعتقد أن السبب الرئيسي لم يكن سوى سبب اقتصادي. لم اعتقد في يوم من الأيام أن النفط كان هو المحفّز الأهم والأوحد، لأن هناك احتياطيات نفطية كافية في متناول الولايات المتحدة، ولو كانت الولايات المتحدة مستميتة على النفط، لكان بإمكانها إبرام صفقة مع نظام صدام حسين، وفي عام 2000 و2001 كانت الولايات المتحدة تشتري النفط من العراق عن طريق الوسطاء. إذن، لم تكن المسألة أن تدفق النفط كان سيتوقف. لا، وأعتقد أنه يوجد سبب رئيسي وراء اجتياح العراق واحتلاله، ويصاحبه بعض الأسباب الثانوية. وهذا السبب هو استعراض القوة الإمبريالية الأمريكية. لقد كانوا يدركون أن الجيش العراقي هو جيش ضعيف، وكانوا يعلمون تماماً أنه لا يوجد في العراق أسلحة دمار شامل. ولو كان هناك أسلحة دمار شامل لفكروا مائة مرة قبل التوجه إلى هناك. لقد كانوا على يقين من عدم وجود مثل هذه الأسلحة هناك، وأن السيطرة على

العراق ستكون مهمة سهلة. وسبب إقدامهم على ذلك في هذا الوقت بالذات هو ليبرهنوا للعالم العربي، ولأوروبا والصين وكوريا من هو السيد. أعتقد أن هذا هو السبب الرئيس وراء احتلال العراق.

وطبعاً هناك دافع ثانوي مهم وهو إرضاء الإسرائيليين بسبب وجود فئة ليكودية في مركز حكومة بوش. وهؤلاء الأشخاص يمثلون أكثر عناصر المجتمع الإسرائيلي تطرفاً. وكان الإسرائيليون يسعون منذ زمن إلى الإطاحة بنظام صدام حسين لأنه كان يشكل في نظرهم تحدياً محتملاً لهم. فالعراقيون والسوريون هما النظامان الوحيدان اللذان لم يبرما تسوية سلمية مع الإسرائيليين وهم يعلمون أن صدام قدم الكثير من الأموال للفلسطينيين، ولم لا؟

وفي اليوم الذي أعقب سقوط بغداد، خاطب آرييل شارون، مجرم الحرب الذي يحكم إسرائيل، الفلسطينيين قائلاً:"آمل أن تعودوا إلى رشدكم، بعد أن سقط حامي حماكم الكبيرُ". وتكشف تصريحاته هذه عن عدم فهم لديناميكية ذلك الصراع أو سبب وقوعه ابتداءً. وحصل على الجواب من الفلسطينيين أكثر من مرة منذ ذلك الوقت. إلا أن ذلك هو السبب الرئيس لاحتلال العراق.

والخطأ الفادح الذي وقعت فيه الولايات المتحدة هو أنها لم تكن تتوقع المقاومة. ولم تكن الحكومة الأمريكية مستعدة لها لأن الخونة من العراقيين والمتعاونين، والمحتالين، والدجالين الذين استمعت لهم أمريكا- كانوا إما على جدول رواتب الحكومة الأمريكية أو كانوا مستميتين لإدراج أنفسهم في ذلك الجدول. وكانوا يقولون بأن الجنود الأمريكان سيستقبلون بالحلوى والورود. وهذا ما ذكره الغبي كنعان مكية لبوش عندما ذهب لمقابلته في البيت الأبيض، "لا تقلق، سيكون ذلك تحريراً للشعب العراقي". وقد ظهر أن الشعب العراقي لم يعتبر التدخل الأمريكي تحريراً لهم. كما أن هذه الحفنة من المحافظين الجدد العراقيين المقيمين في الولايات المتحدة قدمت نصيحة خاطئة لحكومة بوش.

والآن يرسل الجنود الأمريكيون في العراق رسائل تقول:إننا مبغضون من قبل الشعب هنا، فهم لا يحبوننا؛ ويرمقوننا بنظرات الغضب والاحتقار، إنهم مستاءون من وجودنا هنا".

والقطاع الوحيد من الشعب الأمريكي الذي لديه أفضل المعلومات عن الوضع في العراق هم الجنود الأمريكيون الموجودون هناك، لأنهم يشاهدون الحقيقة وواقع الاحتلال كل يوم بأم أعينهم، وإذا تعارضت الأخبار والتحليلات التي تبثها محطة فوكس أو الإذاعة التابعة للجيش مع ما يشاهدونه، فإنهم سيصدقون تجربتهم المحسوسة، لا ما يقال لهم. وهذا هو الفارق الكبير بين غالبية الشعب الأمريكي وقطاع الجنود الذين يخدمون في العراق. وهذا هو سبب ما نشاهده ونسمعه من الرسائل الغاضبة والمقابلات الساخطة، والرسائل الإليكترونية الصادرة عن الجنود عندما يتاح لها الظهور خلال القنوات الإعلامية. ونلحظ حدّة في كلامهم بسبب تجربتهم الشخصية، وقد كنت أناقش دائماً أن التجربة هي أفضل معلّم للجماهير، لأنهم يتعلمون من خبرتهم الجماعية، وكل هذا مهم، إلا أن ما يعلم الناس هو خبرتهم الشخصية. واعتقد أن الولايات المتحدة سوف تجني ما زرعت في العراق عاجلاً أم آجلاً.

ست جالي: ما ذا تعني بقولك بأن الولايات المتحدة ستحصد ما زرعت في العراق(*)؟

أعني أنه حتى لو نجح الاحتلال في إعادة ما يشبه الوضع الطبيعي، فإن الوضع سينفجر في غضون خمس أو ست أو سبع سنوات. ولهذا السبب أوضحت في كتابي "بوش في بابل، تاريخ المقاومة في العراق ضد الإمبراطورية البريطانية التي أوجدت دولة العراق الحديثة ولقيت فيها مقاومة على مدار

(*) استخدم المتحدث مثلاً دارجاً في اللغة الإنجليزية للدلالة على هذا المعنى وهو أن "الدجاجات ستعود إلى القن في نهاية اليوم".

خمس سنوات. ونجح البريطانيون في احتلال العراق فترة من الزمن قد تبدو طويلة، إلا أن كل عقد من هذه العقود الثلاثة كان يشهد حركات مقاومة إلى أن انتهت بالثورة ضد الاحتلال. وأخرج البريطانيون من البلاد أخيراً. وأعتقد أن الشيء نفسه سيتكرر ثانية إذا استمر الاحتلال لوقت طويل.

والمشكلة بالنسبة للولايات المتحدة هي الآتي: إما أن تبقى في العراق لثلاثة عقود، وهو الأمر الذي من شأنه أن يخلق بلبلة وفوضى في أمريكا نفسها لأن الإمبرياليين الأمريكان، وعلى العكس من اعتقاد بعض الناس، وعلى خلاف ما كانت عليه حال الإمبراطوريات الاستعمارية في القرن التاسع عشر والقرن العشرين- لا يحبون أن يكونوا أنفسهم قوات احتلال. ولا يحبون صنع شبكاتهم الخاصة. بل يفضلون البحث عن مواطنين محليين كي يوكلوا إليهم مهمة القيام بالأعمال القذرة نيابة عنهم. وكانت تلك هي الطريقة التي حكموا من خلالها سواء كان هؤلاء العملاء أعضاء في زمرة حاكمة، أو دكتاتوريين عسكريين، أو سياسيين منتخبين، وهو ما كان نادراً في الأيام السابقة. هذه هي الفئات التي تفضل الولايات المتحدة أن توكل إليها القيام بأعمالها.

والمشكلة في هذا الاحتلال هي أنه وقع في حقبة شهدت إجماعاً في الرأي في واشنطن، ويمكن وصفها أيضاً بعهد الاقتصاد الليبرالي الجديد. فالحرب إذن، هي الساق الأخرى للاقتصاد الليبرالي الجديد. وتقوم هذه الإمبراطورية على ساقين: الأولى هي التوافق في واشنطن بكل مؤسساتها بما في ذلك صندوق النقد الدولي والبنك الدولي، ومنظمة التجارة العالمية. وهذه المؤسسات كلها تفرض وتروّج لنمط محدد من الاقتصاد على العالم بأسره، وإذا لم ينجح هذا الاقتصاد في مكان ما، فإنهم يلجأون إلى الحرب. وإذا كانوا يحاولون إيجاد مثل هذا الاقتصاد في العراق، فإنهم لا يسمحون - في هذا الوقت- للشركات العراقية أو التجار العراقيين المشاركة فيه. وما يفعلونه هو تشجيع الشركات

الأمريكية التي تقوم حتى بأبسط المهمات. والشركة العراقية الوحيدة التي تلقى تشجيعاً من الأمريكان هي ليست شركة عراقية على وجه الحقيقة، وإنما هي تجمع استثماري بالمشاركة مع شركة إسرائيلية. وقد نجحوا في عزل أنفسهم عن كل شرائح المجتمع العراقي في وقت قصير جداً، ولا أعتقد أن هذا المشروع سيلقى النجاح. وفي اللحظة التي ستنسحب فيها الجيوش، فإن الحكومات العميلة لهم سيطاح بها. والشيء نفسه سيحدث في أفغانستان. إن هذا الطراز الجديد من الاستعمار لن يكتب له النجاح.

ست جالي:إذن، فما الذي سيفعلونه إذا أبقوا على قواتهم هناك؟

سوف تتنامى مشاعر الغضب والتذمر. ومن الملفت للنظر أن أفراد الجيش الذين يرسلون إلى العراق هم من أفقر فئات المجتمع الأمريكي. ويتألف معظمهم من أبناء الجاليات اللاتينية (المكسيك وأمريكا الوسطى والجنوبية) والسود، ومعظم هؤلاء انضموا إلى الجيش بسبب الفقر والحاجة إلى الوظيفة لدعم أسرهم. والتحق بعضهم بالجيش لأن تلك هي الوسيلة الوحيدة التي يمكنهم عن طريقها الحصول على التعليم الجامعي المناسب والموعود. وهناك قسم من حاملي الكرت الأخضر التحقوا بالجيش أملاً في الحصول على الجنسية الأمريكية بعد المشاركة في الخدمة العسكرية. فمعظم الذين ينتسبون إلى الجيش يفعلون ذلك بدوافع اقتصادية. إلا أن هذا الوضع سيختلف إذا تصاعدت وتيرة الخسائر البشرية. عندها سيتحتم على الجيش اللجوء إلى التجنيد الإجباري على الأقل لتأمين الاحتياط. وإذا حدث ذلك، فإن الناس سيرغبون عن الانتساب إلى الجيش قائلين:"لماذا ننخرط في الجيش ونقتل في المعركة؟" وإذا انخفضت معدلات التجنيد الطوعي فإنهم سيلجأون إلى التجنيد الإجباري، وهذا الإجراء على فظاعته فإنه أكثر درامية. فكأنهم يقولون للشعب هذه هي حربكم، وليست فقط حربنا، لقد أيدتم المسئولين عن شن هذه الحرب، والآن موتوا من أجلهم.

ولهذا السبب ما زالت الحكومة ترفض اللجوء إلى التجنيد الإجباري ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، لأنهم يعلمون تمام العلم ما فعل التجنيد الإجباري أيام فيتنام. ويعلم بوش علماً جيداً شأن التجنيد الإجباري لأنه تهرب منه أيام شبابه.

لا يوجد شخص واحد من بين رجال بوش شارك في حرب فيتنام. وكلهم وجدوا أعذاراً مختلفة لتجنب الذهاب إلى تلك الحرب. وكل المسئولين الكبار تنصلوا من خدمة الجيش في فيتنام باستثناء كولن باول الذي كان يعمل في الجيش وقتها، وقام بالتستر على أسوأ المجازر التي وقعت في فيتنام وهي مجزرة مي لاي(*). إلا أن الآخرين نجحوا في تأجيل الخدمة. إذن، فهذه قيادة، إلى حد كبير، لا تعرف طبيعة الخدمة في الجيش، فهم معزولون ومنقطعون، شأنهم شأن حزب البعث الذي يحاولون الإطاحة به.

ست جالي: ما هي النصيحة التي تقدمها للشعب الأمريكي مع اقتراب موعد الانتخابات الرئاسية لعام 2004؟

أقول لهم بأنه ليس من مصلحتكم أن يحكمكم نظام عازم على شن حروب غير متناهية. لقد احتلوا العراق، وهناك خسائر بشرية كبيرة، والطبقة العاملة هي أكثر فئات المجتمع تأثراً بهذه الحرب لأنهم يشكلون معظم أفراد الجيش، كما أن الاقتصاد لا يشهد أي تحسن. وإذا حاولت الولايات المتحدة أن تشن حرباً ضد إيران وسوريا- وأنا أشدد على أداة الشرط "إذا" لأن المقاومة العراقية تجعل من ذلك أمراً صعباً- فإنه سيتحتم عليها اللجوء إلى التجنيد الإجباري لأن أهداف الحكومة لا يمكن تحقيقها بالأعداد الحالية للجيش.

(*) مجموعة قرى جنوب فيتنام تعرض سكانها للقتل العشوائي في الحرب الفيتنامية على يد القوات الأمريكية.

وأقول للمواطن الأمريكي: فكر جيداً قبل أن تدلي بصوتك. هل ستصوت لصالح مزيد من الحروب، وهو الأمر الحتمي الذي ستحصل عليه من هذه الحكومة. وإذا حصلت حكومة بوش على التأييد الشعبي في الانتخابات القادمة، فإنها ستحمل هذا الفوز على أنه تكليف شعبي لها بشن مزيد من الحروب. ومن جهة أخرى، فإني أقول للشعب الأمريكي: لا تثقوا بالديمقراطيين. بالتأكيد تخلصوا من هذا النظام، ولكن تأكدوا من الإبقاء على الديمقراطيين تحت المراقبة والضغط الشديد من اليوم الأول الذي يصلون فيه إلى سدة الحكم، لأن الديمقراطيين قادوا البلاد إلى حروب عدة مرات في السابق.

وينبغي على المرء أن يفكر بشكل أساسي بهذا العالم الذي يعيش فيه، وكيف يجب أن يعاد تشكيله. وإذا كنت تعتقد أن الحرب هي السبيل لإعادة تشكيل هذا العالم، فإنك بذلك تشجع مزيداً من الإرهاب، ومزيداً من الهجمات الإرهابية، ومزيداً من الضحايا الأمريكان. وقلما تتحدث وسائل الإعلام عن هذا الموضوع، ولكنك تجد في بلد مثل اليونان، مهد الحضارة الأوروبية، أن 90٪ من السكان هناك يعارضون بشدّة السياسات الأمريكية. وإذا ذهبت إلى جزيرة رودس فإنك ستجد جميع مطاعم ماكدونلدز قد تعرضت كلها للاعتداء. و أي شيء يمثل أمريكا ولو من بعيد يتعرض للهجوم. ولي صديقة مقربة تدرّس في نيويورك، ذهبت ذات مرة إلى جزيرة رودس للمشاركة في مؤتمر عقد هناك. وحدث أن توفي زوجها هناك على شاطئ البحر بسبب تعرضه لنوبة قلبية. وكانت هذه المرأة وزوجها من أشد المعارضين للحرب في العراق. توفي زوجها، ووجدت صعوبة في الحصول على المساعدة، وذكرت لي أن أناساً كثر جاءوا إليها وقالوا لها إن كل ما تحسنون فعله أنتم أيها الأمريكان هو قتل الناس أو البكاء والصراخ عندما يموت منكم أحد. أصيبت المرأة بالصدمة لما سمعته ولكنها تفهمت الموقف، وقالت لمن حولها:"إن أمريكا ليست دولة واحدة على رأي واحد، هناك أعداد كبيرة يعارضون الحرب."

إلا أن الصورة التي تنطبع في أذهان الناس هي أساساً صورة الموقف الرسمي الحكومي لأن الجوانب الأخرى من أمريكا ليست مسموعة. والصورة التي يشاهدها الناس هي صورة القوة الأمريكية وكيف تستخدم هذه القوة. والقوة الوحيدة في العالم التي لديها القدرة على الأقل في السيطرة على تلك القوة هي الشعب الأمريكي عندما يتوجه إلى صناديق الاقتراع في الانتخابات. لذلك، فإن نصيحتي هي أن تتخلصوا من بوش لأن ذلك يمثل هزيمة لسياسة الحرب التي اعتمدها بعد 11 سبتمبر، ومن شأنه أن يفتح باب النقاش حول ما تسعى الحكومة إلى فعلة. وسواء نجحوا في التخلص من بوش أم لا، فإن البديل الديمقراطي هو الآخر لا يبشر بالخير.

ولم يتقدم أحد من بين مرشحي الحزب الديمقراطي،من وجهة نظري، بسياسة لتحريك الشعب. ولم يقف منهم أحد في معارضة قانون الوطنية، وتحجيم الحريات والحقوق المدنية، واعتقال الناس واقتيادهم من الشوارع والبيوت، وغير ذلك من الأمور. لم يقدم منهم أحد على المعارضة لأنهم يخافون من الطعن في وطنيتهم، ولم يجرؤ منهم أحد على القول بأن التعامل مع الإرهاب – الإرهاب الحقيقي لا الإرهاب الخيالي– يكون بالتوصل إلى حل سياسي لأزمة الشرق الأوسط لأن القضية الجوهرية في تلك الأزمة هي الصراع الإسرائيلي – الفلسطيني. وعندما ذكر ذلك أحد المرشحين الديمقراطيين، وهو هاورد دين، أجبر على التراجع. واقترح دين بأننا يجب أن لا نكتف بالامتناع عن دعم الطرف الذي يمارس الاضطهاد، بل يجب علينا أن ننظر إلى وجهة نظر الطرف المضطهد. ولهذا السبب، تعرض هاورد دين إلى العقاب والتشهير، ثم تراجع عما قاله على الفور. وبعد ذلك أعرب عن تأييده لقيام إسرائيل بضرب سوريا. وبرأيي الشخصي فإن المرشحين الديمقراطيين من أمثال هاورد دين وحتى الأكثر ليبرالية منه لن يكونوا ناجحين. وكلما اقتربنا من موعد الانتخابات، فإن عليهم

أن يواجهوا بوش في كل الجبهات، وهو الشيء الذي لم يفعلوه حتى الآن. وإذا خاضوا المعركة الانتخابية في الساحة التي يحددها الجمهوريون، فإنهم حتماً سيخسرون تلك الانتخابات.

ست جالي: لا يحب الشعب الأمريكي أن يرى نفسه على أنه "إمبراطورية"، فماذا تقول لهم؟

أعتقد أن أول شيء ينبغي على الناس تفهمه هو أنهم يعيشون فعلاً في إمبراطورية، وأن الولايات المتحدة الآن هي في وضع فريد على المستوى العالمي. وهي الإمبراطورية الوحيدة في العالم. وهذا أمر لم يسبق أن حدث في تاريخ البشرية من قبل. لم يسبق أن شاهدنا حالة، على الأقل منذ عدة آلاف من السنين، تسيطر فيها إمبراطورية واحدة على العالم بأسره. لقد شهد العالم وجود إمبراطوريات ذات بطش وسطوة، إمبراطوريات قوية، إلا أن هذه الإمبراطوريات لم تعدم المنافسة. وهذه هي المرة الوحيدة التي نشهد فيها وجود إمبراطورية وحيدة. وإذا لم يصدق الناس أن الولايات المتحدة هي إمبراطورية، فما عليهم سوى السفر حول العالم ليشاهدوا بأم أعينهم كيف تدير هذه الإمبراطورية بقيةَ العالم، ويعاينوا الآليات والوسائل المختلفة التي تستخدمها في السيطرة والهيمنة. وأعتقد أنه بالنظر إلى أن الولايات المتحدة هي دولة شاسعة بكل ما فيها من تعدد وتنوع لدرجة أن معظم الناس لا يتطلعون إلى الخروج منها، فبإمكانهم أن يجدوا كل ما يبحثون عنه فيها. إلا أن حقيقة أن عدداً قليلاً من مواطني الولايات المتحدة يحملون جوازات سفر هو إشارة واضحة الدلالة على هذه العزلة. وبما أن الغالبية العظمى من الشعب الأمريكي معزولة عن بقية العالم، فإن بإمكان حفنة من الساسة أن يقولوا لهم ما هي حالة العالم ويسوقونهم إلى الحرب. وأعتقد أن من المهم أن يتبنى الشعب الأمريكي وجهة نظر مختلفة عن العالم المحيط بهم. يجب أن يسافروا ويعاينوا ما يحدث في

فلسطين. ولا أشك أن غالبية الشعب الأمريكي العادي سيصابون بالدهشة والصدمة من شدة الاضطهاد الذي يحدث في تلك الدولة الصغيرة من العالم. يجب أن يزوروا أجزاء من إفريقيا، وعليهم أن يذهبوا ويشاهدوا ما يحدث في الشرق الأقصى ليكوّنوا تصوراً حقيقياً عن العالم.

وحالما تدرك أنك مواطن من رعايا الإمبراطورية فإن ذلك يرتب عليك مسؤوليات وتبعات. وإحدى هذه المسؤوليات أن تبقى متيقظاً ومتحفزاً في مراقبة الساسة كي لا يكذبوا عليك؛ وأن تتحرك ضد أكاذيبهم؛ وأن تقف لهم بالمرصاد في كل مناسبة وفرصة. ولتحقيق ذلك فإننا بحاجة إلى مواطنين واعين ومتيقظين. وإذا كان لديك شعب لا يعي ما يجري حوله، فكيف تدعي أنك تعيش في ديمقراطية حقيقية؟ بالتأكيد أن الديمقراطية تتطلب أوسع وسائل المعلومات وأكثرها تنوعاً. وإذا كنت تقدم للناس رأياً واحداً يوما بعد يوم، فما هو الفرق إذن بينك وبين دولة الحزب الواحد؟!

وفي كل مرة أزور فيها الولايات المتحدة وأشاهد برامج الأخبار على مختلف المحطات والتي هي في الحقيقية فظيعة، ثم أتحول إلى محطة فوكس، فإني أشاهد قناة تبث دعاية إعلامية للحكومة ونظامها بأسلوب مقزز، وتقوم بعرض الأخبار والتحليلات بطريقة فجّة موجهة رسالتها إلى القاسم المشترك الأدنى من طبقات المجتمع والبسطاء من الناس. وهذا وضع مخيف بالنسبة لي. إن مثل هذا الوضع هو الذي يوجد سكاناً لا يعرفون ما يجري حولهم في العالم.

إن الاعتقاد السائد لدى معظم الشعب الأمريكي من أن النظام العراقي المهزوم له علاقة بما حدث في 11 سبتمبر يثير سخرية بقية العالم. ولو ذكرت ذلك للأوروبيين، وحتى ذوي التوجهات اليمينية منهم، فسيقولون لك:"هل أنت جاد فيما تقول، هل يصدق الناس في أمريكا فعلاً أن صدام حسين له أي علاقة بهجمات11 سبتمبر؟ لا بد أنك تقول ذلك على سبيل المزاح؟ ". فأقول لهم "لا،

إنها الحقيقة". إلا أن الولايات المتحدة هي الدولة الوحيدة في العالم التي يعتقد شعبها بذلك. وها نحن أمام أقوى إمبراطورية في العالم، والأكثر تقدماً تقنياً وفيها أقوى الجامعات في العالم. النخبة فيها مثقفة ومتعلمة تعرف الحقيقة، إلا أن الغالبية العظمى من الناس قد أُبقيت عن عمد في جهالة عن طريق إغراقهم بالمعلومات الخاطئة والمضللة والمشوهة على يد الساسة وشبكات الإعلام. وهذا يشكل تحدياً كبيراً للممارسة الديمقراطية. هذا هو المستوى الذي وصلنا إليه الآن، وهو وضع خطير كما سبق أن ذكرت، وبخاصة فيما يخص التعددية والديمقراطية الحقيقية، وعلى المرء أن يقاوم هذا الوضع. وإذا قال الأمريكان "إننا شعب لا نهتم بالسياسة،" فأقول لهم "إنكم ستدفعون ثمن عدم اهتمامكم بالسياسة". وهذا هو مكمن الخطر. يجب أن يكون عندكم اهتمام لكي تمارسوا سلطة الرقابة على الساسة المنتخبين.

ست جالي: ما هو تقويمكم لمعارضة الحرب على العراق؟ هل هناك تأثير لهذه الملايين التي تظاهرت ضد الحرب في شوارع المدن الرئيسية من العالم؟

ربما كانت المظاهرات التي حدثت في 15 فبراير من عام 2003 أكبر تظاهرة ضد الحرب في تاريخ العالم. وقد حدثت في كل أرجاء المعمورة. ولا اعتقد أن أوروبا كانت تختلف كثيراً عن الولايات المتحدة. وقد شهدت بعض المدن الأوروبية – وتحديدا في إيطاليا واليونان– خروج جماهير غفيرة من الناس للاحتجاج على هذه الحرب. وأعني أن خروج ثلاثة ملايين متظاهر إلى شوارع روما هو أمر مدهش حقاً، كما أن 80٪ من الأسبان كانت تعارض الحرب بحسب استطلاعات الرأي. وهذا يعكس نبض الملايين من الناس الذين يرون أن هذه الحرب خاطئة وأنه ما كان ينبغي أن تقع. وكانت أعداد كبيرة من الناس الذين خرجوا في المظاهرات في أمريكا وأوروبا من الأشخاص الذين يشاركون لأول مرة في

مظاهرات ضد الحرب، وكانوا يعتقدون أن بإمكانهم وقف الحرب بأعدادهم وحسب. ولما تبين لهم عدم قدرتهم على ذلك أصيبوا بالإحباط وضعف العزيمة. إلا أن تلك المشاعر المناهضة للحرب ما تزال موجودة. والسؤال هو كيف يمكن استغلال هذه المواقف، وباعتقادي أن الكثير سيعتمد على المقاومة داخل العراق نفسها. لأنه متى ما بدأت الحرب، فإن علاقة جدلية تنشأ بين المقاومة في البلاد المحتلة وبين حركات المعارضة للحرب في الدول التي تقوم بالاحتلال. وسنشاهد ما يحدث. وأنا واثق بان الاحتلال إذا استمر لأكثر من ستة أشهر أو لسنة أو سنتين فان الحركات المعارضة للحرب ستشهد نمواً جديدا. وربما لن تكون بالحجم الذي شاهدناه في 15 فبراير، إلا أنها ستكون أكثر تماسكاً هذه المرة.

أعتقد أن هناك مهمة جسيمة تواجه الذين يعارضون الإمبراطورية ومغامراتها العسكرية. وهذه المهمة ليست سهلة، ومن الحماقة افتراض وجود حلول سهلة. إلا أنه يجب إقناع الرأي العام الأمريكي بان هذه الحرب هي حرب خاطئة أولاً، ولا يمكن إقناع الرأي العام بذلك إلا إذا ذاقوا طعم المعاناة، وهذا هو الواقع مع شديد الأسف. وهو السبب الذي كان وراء الحركة المعارضة للحرب في الستينيات – عندما تنامت الخسائر البشرية إلى حد لا يطاق. ومن يعلم ماذا سيحدث الآن. ويمكن القول بأن الحركة المعارضة للحرب ليس لها أي تمثيل في السياسات الرسمية الحالية.

وفي عهد الحرب الفيتنامية كان لديك بضعة أعضاء في مجلس الشيوخ – فلبرايت، ووين، ومورس، وقلة قليلة غيرهم– ممن ثبتوا على معارضة الحرب في فيتنام داخل مجلس الشيوخ. وقام السناتور فلبرايت بإجراء مداولات علنية من خلال لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ بثت عبر محطات التلفاز حول العالم، وجرى فيها مواجهة المسئولين واستجوابهم. وقد توقف إجراء مثل هذه المداولات العلنية هذه الأيام. ومن الغريب أن انهيار الشيوعية وانتهاء الحرب الباردة قد جعلت من الديمقراطية شيئاً تافهاً، ويبدو أن التعددية التي كانت

موجودة في الدول الديمقراطية خلال الحرب الباردة قد أخذت هي الأخرى بالتلاشي سواء في الإعلام أو في السياسات الرسمية. ولهذا، فإنك إذا نظرت حتى في بريطانيا الآن فستجد أن الفوارق بين وسط اليسار ووسط اليمين لا تكاد تذكر، وقد كانت هذه هي حال الحزبين في الولايات المتحدة منذ وقت طويل. وقد دفع هذا الوضع إلى نفور الشباب الناشئ وعزوفهم عن المشاركة في العملية السياسية لأنهم باتوا مقتنعين بعدم قدرتهم على تغيير أي شيء. ولهذا فإن أعداد الذين يشاركون في الانتخابات في أوروبا تشهد تناقصاً مطرداً لأن أمركة الاقتصاد قد أثرت في سياسات هذه الدول.

وللوقوف في وجه هذا التيار، فإنه يتحتم علينا التشديد على المشاركة الديمقراطية بدءاً من القاعدة الشعبية، والعمل على تقديم شبكات بديلة للإعلام برغم ضعفنا وقلتنا. وهذه البدائل هي أكثر تطوراً في الولايات المتحدة منها في أوروبا، لأن الناشطين في هذا المجال في الولايات المتحدة يدركون مدى عمق المشكلة والدور الذي يلعبه الإعلام في التأثير. وهم أيضاً يعدون أنفسهم لتدشين هذه البدائل، ولهذا السبب يوجد لديهم محطات إذاعة وتلفاز محلية، ومحطات تلفاز تعود ملكيتها للمجتمعات المحلية، وشبكة متنامية من المراكز البديلة للمعلومات. أما في أوروبا فنحن بانتظار تحقيق شيء كهذا. وبالطبع شكلت الإنترنت دفعة كبيرة لهذه الجهود، إلا أن الذين يستخدمونها هم أقلية. فخدمة الإنترنت ليست متوفرة للجميع على مستوى العالم. ولذلك فإن مهمة الحركة المعارضة للحرب تختلف كثيراً بالمقارنة بمهمتها في الستينيات والسبعينيات. ونوعاً ما، فإن عليهم البحث أعمق وأعمق للوصول إلى الحقيقة وباعتقادي أنهم سيتوصلون إليها.

ساوث هادلي، ماسيتشيوستس

17 **أكتوبر**، 2003